سلسلة كتيبات شبكة بينونة

خلق الإيثار في الإسلام

الشيخ
إبراهيم بن عبدالله المزروعي

@BaynoonanetUAE
@Baynoonanet
www.baynoona.net

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

خُلُقُ الإيثار
في الإسلام

الشيخ
إبراهيم بن عبد الله المزروعي

شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@BaynoonanetUAE @Baynoonanet
www.baynoona.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]، أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد؛

فإننا نحمد الله عز وجل علىٰ نعمة الإسلام وعلىٰ نعمة الصحة والأمان، هذه المحاضرة التي هي بعنوان: **«خلق الإيثار في الإسلام»**.

إن الإيثار من أفضل أخلاق المسلم وأشرفها وأعلاها، وقد جبل الله عز وجل القلوب علىٰ تعظيم صاحبه ومحبته، وهو خلق الفضل في الإسلام لا يدرك هذا الخلق خلق الإيثار إلا إذا رزق العبد طبيعة منقادة، إذا زجرها انزجرت، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين، في خلال هذه المحاضرة نتكلم بعون الله عز وجل وفضله عن خلق الإيثار في الإسلام.

حقيقة الإيثار معنىٰ الإيثار لغة واصطلاحا، ما هي أنواع الإيثار؟ الإيثار المحمود والإيثار المذموم، مع

ذكر أمثلة عليها، ثم نتكلم عن فضائل الإيثار، ثم نختم هذه المحاضرة ببيان كيفية اكتساب الإيثار.

الإيثار في لسان العرب يستعمل الأمر للفصل والإيثار للتفضل، ومنه آثرته وآثره عليه، وفي قول الله عز وجل في قصة يوسف: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]، والإِيْثَارُ والأَثَرُ الإِثَرُ جمع الإِثَرَة وهي الأَثَرة، كما جاء في الحديث في قوله ﷺ للأنصار: «**إنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا**»[1]، والأَثَرَةُ الاسم من آثَرَ يُؤثِرُ إِيْثَارَاً إذا أعطىٰ، أراد أنه يستؤثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء، هكذا قال أهل اللغة، والاستئثار الانفراد بالشيء، ومنه حديث عمر رضي الله عنه: « **فواللهِ ما استأثَرَ بِها عليكُم ولاأخذَها دونَكُم** »[2]، أما الإيثار شرعا، الإيثار أن يقدم غيره علىٰ نفسه في النفع له وفي

(١) رواه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥).

(٢)صحيح أبي داود (٢٩٦٣)،الألباني (ت ١٤٢٠).

الدفع عنه، والإيثار هو النهاية في الأخوة، وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر :٩]: **«الإيثار: هو تقديم الغير علىٰ النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر علىٰ المشقة، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي يؤثرونهم علىٰ أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنىٰ بل مع احتياجهم إليها»**[٣]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال»**[٤]، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم أيضا في بعض كتبه عن الإيثار، ومنها كتابه مدارج السالكين تكلم عن الإيثار فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يشرح كتاب منازل السائلين في كتابه مدارج السالكين يقول: **«فرق الشيخ بين الإيثار والأثرة وجعل الإيثار**

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٨).

اختيارا والأثرة منقسمة إلىٰ اختيارية، واضطرارية... فإن الإيثار هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره علىٰ نفسك، وهذا لا يكون إلا اختيارا، وأما الأثرة فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك، فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه إلا إذا كانت طوعا، مثل أن يقدر علىٰ منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعا فهذا حسن، وإن لم يقدر علىٰ ذلك كانت أثرة»[٥].

فما هي حقيقة الإيثار؟ الإيثار خلق يبعث علىٰ تعظيم الحقوق التي جعلها الله عز وجل للمسلمين بعضهم علىٰ بعض، فالمسلم يرعىٰ هذه الحقوق حق رعايتها، يخاف من تضييعها فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار، الإيثار ضد الشح ضد البخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

من أجاب داعي الجود، الذي عنده الإيثار يجيب داعي الجود والكرم، أما البخيل فيجيب داعي الشح، وقد اختص الله عز وجل به الإنسان المسلم لتعلو همته وتسمو إليه روحه فيسعىٰ في طلب الإيثار وإن عظمت فيه المحنة، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه طريق الهجرتين[٦]: «**والدين كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به علىٰ نفسك، حتىٰ أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاءً وكرمًا، وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده علىٰ غيره من غير احتياج منه سبحانه فإنه الغنىٰ الحميد**»، ثم يقول: «**وقيل: من آثر الله علىٰ غيره آثره الله علىٰ غيره والفرق بين الإيثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به علىٰ**

(٦) (ص٣٠٥ ومابعدها).

الغير، وفي الحديث: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي عُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَمَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا**»[٧] »، فإذا كان الإيثار متعلقا بالله عز وجل وهو أجلها وأشرفها وأفضلها، فترىٰ المؤثر يؤثر رضاه جل وعلا علىٰ رضا غيره، ويؤثر حبه سبحانه علىٰ حب غيره، وعلامة تحقق ذلك إيثار رضا الله وحبه علىٰ إيثار ورضا غيره، علامته وعلامة تحققه في العبد شيئان: فعل ما يحبه الله إذا كانت نفسه تكرهه وتهرب منه، والعلامة الثانية: ترك ما يكرهه الله عز وجل، إذا كانت النفس تحبه تهواه، هذا أعلىٰ درجات الإيثار، الإيثار المتعلق بالله عز وجل، هذا أجل أنواع الإيثار وأشرفها وأفضلها فعل ما يحبه الله، إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه وترك ما يكرهه الله إذا كانت النفس تحبه وتهواه، فعلمنا حقيقة الإيثار وأنه خلق عظيم، والإيثار من

(٧) رواه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩).

مكارم الأخلاق عند العرب، ولذلك كثرت في الإيثار الأشعار، وأيضا سير العرب قبل الإسلام؛ لأن الإيثار من مكارم الأخلاق عندهم، أما الإسلام فقد رفع شأن الإيثار وحض عليه وامتدح أهله في القرآن وفي السنة، أبرز الله عز وجل في كتابه خلق الإيثار في الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين قدموا المحاويج علىٰ حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلىٰ ذلك، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وبلغ من تقدير الإسلام خلق الإيثار وتعظيمه أن الرب سبحانه وتعالىٰ ضحك من فعل الأنصاري الذي أكرم ضيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآثر الضيف علىٰ نفسه وعلىٰ عياله وبات هو وزوجته طاويين من الجوع، ففي الحديث المتفق عليه[٨] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَىٰ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(٨) رواه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلاَ رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ؟**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر :٩]، فالإسلام قدَّر خلق الإيثار، ورفع من شأن الإيثار، وامتدح أهله في الكتاب والسنة، والإيثار مستحب في الإسلام، ويدل علىٰ خلق رفيع عند هذا المؤثر.

أما أنواع الإيثار فالإيثار علىٰ نوعين: أحدهما إيثار محمود، الثاني: إيثار مذموم فنتكلم عن هذين النوعين مع ذكر الأمثلة علىٰ ذلك، مع ذكر علامات الإيثار المحمود وعلامات الإيثار المذموم.

الإيثار المحمود، صاحب هذا النوع من الإيثار أثنىٰ الله عز وجل عليه في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، هذا النوع إيثار محمود عند الله وعند الناس، أيضا من أمثلة هذا نوع الإيثار المحمود: أولا إيثار رضا الله عز وجل علىٰ رضا غيره، هذا أجل وأفضل أنواع الإيثار حيث يتعلق بالخالق جل في علاه، ترىٰ العبد يؤثر رضا مولاه سبحانه وتعالىٰ علىٰ رضا غيره، ويؤثر حبه عز وجل علىٰ حب غيره، ويؤثر خوفه ورجاءه علىٰ خوف غيره ورجائه، ويؤثر الذل له سبحانه وتعالىٰ والخضوع والاستكانة والضراعة والتودد له علىٰ بذل ذلك لغيره، إذًا هذا المثال الأول

الإيثار المحمود: إيثار رضا الله علىٰ رضا غيره، و النوع الثاني هو إيثار الهدىٰ والدين علىٰ ما سواه، وقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كثيرا ما يدعو ربه بالثبات علىٰ الهدىٰ والإيمان فيقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه: «**قوله: مقلب القلوب لأن معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلىٰ إيثار الكفر وعكسه**»[٩]، وهذا الحديث من دعاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»[١٠]، إذًا المثال الثاني علىٰ الإيثار المحمود: إيثار الهدىٰ والدين علىٰ ما سواه، إيثار المنهج الحق، إيثار منهج أهل السنة والجماعة السلف الصالح علىٰ ما سواه من المناهج، هذا نوع من الإيثار المحمود والمطلوب، المثال الثالث علىٰ الإيثار المحمود: إيثار

(٩) فتح الباري (١١/ ٥٢٢).

(١٠) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٢٧).

الآخرة علىٰ الدنيا، ودلت الأدلة من الكتاب والسنة علىٰ مدح الزهد في الدنيا، وذم الرغبة فيها ولفت الانتباه إلىٰ ثواب الآخرة وما في الآخرة من سعادة لمن عمل لها حسابا، فآيات كثيرة وأحاديث كثيرة ترشد إلىٰ الأنفع والأفضل وهي الآخرة، فمن تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر، وآثر حياة الآخرة، والآخرة خير وأبقىٰ، والله عز وجل يقول: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، قال ابن كثير في تفسيره: « ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ **أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقىٰ، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، ويهتم بما يزول عنه قريبا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد**»[11]، المثال الرابع أيضا من أمثلة: الإيثار المحمود إيثار الأخ أخاه المسلم علىٰ

(١١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٧٤).

نفسه في فضول الدنيا، فالمسلم يقدم أخاه علىٰ نفسه في مصالحه، كأن يطعمه ويجوع هو، ويرويه ويعطش، فالمسلم إذا تشبعت روحه بمعاني الإيثار، وانطبعت فيه نفسه بطابع هذا الخلق الجميل، فهذا المسلم دائما يتمثل قول الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، هذا المثال الرابع علىٰ أمثلة الإيثار الممدوح المطلوب، أما النوع الثاني من الإيثار فهو الإيثار المذموم كل إيثار يؤدي إلىٰ إتلاف بقصد لا يجوز في الدين، مثل أن يؤثر المسلم غيره بماله كله، ويقعد كلاًّ فقيرا مضطرا مستشرفا للناس، أو سائلا الناس، هذا أدىٰ إلىٰ إتلاف هذا إيثار مذموم لا يجوز في الدين؛ أن تؤثر غيرك بمالك وتقعد كلا مضطرا مستشرفا للناس تسأل الناس، كذلك أيضا الإيثار بما يفسد عليك قلبك ووقتك وحالك مع الله هذا إيثار غير محمود، يذمّ صاحبه عند الله وعند الناس، ومن أمثلة هذا

النوع: الإيثار بالقربات والطاعات، فالشارع الحكيم لم يجعل الطاعات والقربات محلا للإيثار، بل جعل الطاعات والقربات محلا للتنافس والمسابقة، ولذلك قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لما سمع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قول الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾** [البقرة: ١٤٨]، **وقوله تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾** [الحديد: ٢١] **فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلىٰ هذه الكرامة والمسارع إلىٰ بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأىٰ من يعمل عملا يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له، فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾** [المطففين:٢٦]، **ثم جاء من بعدهم فعكس الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنية وحظوظها**

الفانية، قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة، وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلىٰ الله أحد فافعل»[١٢]، ثم قال: «صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضىٰ بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلىٰ الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنىٰ... ويقول بعض المجتهدين في الطاعات لم تعذب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد،

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

وكما قال المتنبي:

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم

فقيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الآخرة فقدره خطير؛ لأن الآخرة خطيرة شريفة ومن يطلبها أشرف منها، فالإيثار بالقربات والطاعات هذا مثال

(١٢) لطائف المعارف (ص٢٠٦).

ونوع من الإيثار المذموم، ينبغي المسابقة، ولذلك صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[١٣]، قال النووي في تعليقه على هذا الحديث: «**النداء هو الأذان والاستهام الاقتراع، ومعناه أنهم لو علموا فضيلة الأذان وقدرها وعظيم جزائه ثم لم يجدوا طريقا يحصلونه به لضيق الوقت عن أذان بعد أذان أو لكونه لا يؤذن للمسجد إلا واحد لاقترعوا في تحصيله، ولو يعلمون ما في الصف الأول من الفضيلة نحو ما سبق وجاءوا إليه دفعة واحدة وضاق عنهم ثم لم يسمح بعضهم لبعض به لاقترعوا عليه**»[١٤]، إذا خلاصة هذا أن القرعة إنما تكون عند

(١٣) رواه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).
(١٤) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٥٧).

التنافس لا عند الإيثار، ولهذا قال ابن القيم في مدارج السالكين[١٥]: **«ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه»**، وقال أيضا في كتابه طريق الهجرتين[١٦]: **«قال الفقهاءُ: لا يستحب الإيثار بالقربات»**، إذا هذا النوع الأول من الإيثار المذموم الإيثار بالقربات والطاعات، النوع الثاني من الإيثار المذموم: الإيثار بالوقت المصروف في الطاعات، ينشغل ويشغل وقته وقت الطاعات يشغلها باللهو و اللعب فيضيع أوقات الطاعات، يؤثر بالوقت المصروف في الطاعات، هذا إيثار مذموم، والوقت هو عمر الإنسان فكيف يؤثر بوقته في وقت الطاعات

(١٥) مدارج السالكين (٢/ / ٢٨٤).
(١٦) (ص٣٠٦).

يؤثرها باللعب واللهو، يؤثروا بهذا اللعب واللهو عن الطاعات في أوقاتها، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومن نظر في السير سلفنا الصالح وأحوالهم اتضح له كم كانوا يحرصون علىٰ أوقاتهم، قال الحسن البصري: **«أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَ أَحَدُهُمْ أَشَحَّ عَلَىٰ عُمُرِهِ مِنْهُ عَلَىٰ دَرَاهِمِهِ»**(١٧)، يذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الفوائد(١٨) أثرا عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **«إنكم في ممر الليل والنهار في آجل منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له»**، وهكذا أيضا يقول الوزير الفقيه يحيىٰ بن محمد بن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

(١٧) الزهد لابن المبارك (ص٤).
(١٨) (ص٢٦١).

فالوقت وعمر الإنسان فلا ينبغي أن يؤثر هذه الأوقات باللعب واللهو، وخاصة الوقت المصروف في الطاعات، الإيثار بهذا الوقت، أيضا الثالث من أنواع الإيثار المذموم: إيثار الدنيا علىٰ الآخرة، صاحب هذا النوع من الإيثار من أسفه الخلق وأقلهم عقلا؛ لأنه آثر الخيال علىٰ الحقيقة، آثر الظل الزائل علىٰ النعيم الدائم، آثر الدار الفانية علىٰ الدار الباقية، ويذكر الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه أدب الدنيا والدين[19] عن علي ابن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصف الدنيا قال: «**أولها عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، من صح فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنىٰ فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن نظر بها بصرته**»، فأشبه الأشياء بالدنيا السراب، يحسبه الظمآن

(١٩) (ص١٠٨-١٠٩).

ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، فمن كان يطلب الدنيا فلا أدنىٰ منه فإن الدنيا دنية، وأدنىٰ منها من يطلبها، فلا يؤثرها علىٰ الآخرة إلا من كان عنده فساد في الإيمان، أو فساد في العقل وعلىٰ قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة، وحب الدنيا وإيثارها يكون بسبب زينتها وزخرفتها بالمال والبنين، كما ذكر الله عز وجل في كتابه، انتهينا من ذكر أنواع الإيثار وذكر أمثلة عليها.

فما هي فضائل الإيثار؟ الإيثار خلق الفضل في الإسلام، أعلىٰ درجات السخاء أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة هذا لا يكون إلا من خلق زكي، لا يكون إلا من محبة لله تعالىٰ، وهذه المحبة مقدمة علىٰ شهوات النفس

وعلىٰ لذاتها، ومن رزق الإيثار فقد وقي شح نفسه، ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر :٩]، إذًا من فضائل الإيثار أن الإيثار خلق الفضل في الإسلام، وكذلك من فضائله أن الإيثار أيضا خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإيثار رضا الله عز وجل علىٰ غيره ولو أغضب الخلق هو درجة الأنبياء، ولذلك إبراهيم عليه السلام سأل رب الولد الصالح فوهب له إسماعيل عليه السلام، فامتحنه الله بذبحه، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن استسلم لأمر الله عز وجل، فأقدم علىٰ ذبح ولده، إذًا آثر رضا الله عز وجل علىٰ غيره، فكافأه الله عز وجل بأن فداه بذبح عظيم، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاز أعلىٰ هذه الدرجة، درجة الإيثار فقد قاوم العالم كله، تجرد للدعوة واحتمل الأعداء من القريب والبعيد، احتملهم في الله عز وجل، آثر رضا الله عز وجل علىٰ رضا غيره من المخلوقين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل

كان همه وعزمه وسعيه كله مقصورا علىٰ إيثار مرضاة الله حتىٰ ظهر هذا الدين بفضل الله عز وجل، وقامت الحجة علىٰ العالمين، أيضا من فضائل الإيثار أنه يكسب العبد رفعة في الدنيا والآخرة، فالمتصف بهذا الخلق خلق الإيثار جميل الذكر في الدنيا، حيث إن القلوب جبلت علىٰ تعظيم من يؤثرها، وما في الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه يعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله، فالمؤثر يعلم عن يقين أن ما يقدمه اليوم يجده غدا هو خيرا وأعظم أجرا، وهو يتدبر قول الله عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل :٢٠]، فالإيثار يكسب العبد رفعة في الدنيا والآخرة، والمؤثر يحتقر الدنيا ويزدريها، ويؤثر الآخرة ويختارها، يقبل علىٰ الله عز وجل، يؤثر رضاه سبحانه وتعالىٰ علىٰ رضا غيره، والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالىٰ، أيضا من فضائل الإيثار: أن

الإيثار هو النهاية في الأخوة الدينية والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخىٰ بين المهاجرين والأنصار، آخىٰ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع لعبد الرحمن: «**إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لاَ حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟**»[٢٠]، فسعد بن الربيع الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آثر نصف ماله وإحدىٰ زوجتيه، يختار منهما عبد الرحمن بن عوف، فالإيثار هو النهاية في الأخوة الدينية، كيف بلغت عندهم الأخوة الدينية صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهذه من فضائل الإيثار.

كيف يكتسب الإيثار؟ فالأخلاق لو كانت صفات لازمة تخلق في الإنسان ولا يمكن تغييرها لما ورد به الشرع؛ لأنه لا تكليف إلا بمقدور لكن الأخلاق

(٢٠) رواه البخاري (٢٠٤٨).

لو كانت لا تقبل التغيير لبطل الوصايا والمواعظ والتأديبات، فالإيثار يكتسب كغيره من الأخلاق، وبين ذلك الله عز وجل فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس :٩-١٠]، والذي يكتسب الأخلاق الحسنة فهو مفلح، ولأنه زكىٰ نفسه فهو من المفلحين، فالأخلاق تكتسب ومنها الإيثار، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّما الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[٢١]، فمعنىٰ ذلك أن الأخلاق تكتسب ومنها الإيثار.

فما هي الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار؟ أذكرها سريعا في ختام هذه المحاضرة، من الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب خلق الإيثار: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار وبحسب رغبته فيه

(٢١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٦٦٣)، وهو في صَحِيح الْجَامِع (٢٣٢٨).

يكون إيثاره، من الوسائل مقت الشح والبخل، فإن العبد إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار فإنه يرىٰ أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار، من الوسائل أيضا: تعظيم الحقوق التي جعلها الله عز وجل للمسلمين بعضهم علىٰ بعض أداء هذه الحقوق، المواظبة علىٰ تكلف الإيثار مرة بعد مرة حتىٰ تألفه النفس، هذه وسيلة من الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار المواظبة هذا تكلف الإيثار مرة بعد مرة حتىٰ تألفه النفس، تعتاده يصير لها طبعا وسجية، أيضا من الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار: إدمان مطالعة فضائل الإيثار التي ذكرناها وغيرها، ترديد هذه الفضائل علىٰ القلب، جمع الهمة علىٰ تحصيل الإيثار، السعي الحثيث في التحلي بهذا الخلق، ومن الوسائل أيضا التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار مواظبة علىٰ العبادات والطاعات المفروضة والمندوبة كالصلاة

والزكاة وغيرها، من الوسائل: لزوم الصدق وتحريه تجنب الكذب؛ لأن الصدق يهدي إلىٰ البر، الإيثار من جملة البر،من الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار أيضا: استحضار إيثار المثل الأعلىٰ للبشرية رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والنظر في سيرته العطرة شمائله ثم النظر أيضا في إيثار الصحابة عنهم وفي سيرهم، وفي سير الصالحين استحضار إيثار من تبعهم أيضا من أهل الإيمان والعلم، من الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار أيضا: تقوية رابط الأخوة، الأخوة في الله التي تورث في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة، وأخيرا من وسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار: الابتعاد عن الرفقة السيئة، النفرة من أخلاق اللئام تحول إلىٰ الصحبة الصالحة؛ لأن الطباع سراقة، ومصاحبة الصالحين الذين يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة تكسب هذا الخلق

العظيم الإيثار، أما مصاحبة غيرهم ممن يتصف بالبخل والشح والكذب والفسق والفجور، فإن هذا يبعد عن الأخلاق الحسنة ومنها خلق الإيثار، ويعتزل المسلم البيئة الفاسدة التي تصد عن الأخلاق الحسنة، ومنها خلق الإيثار، إذًا علمنا من خلال هذه المحاضرة أن الإيثار أن يقدم غيره علىٰ نفسه في النفع له في الدفع عنه، علمنا أن الإيثار هو النهاية في الأخوة علمنا أن الإيثار خلق يبعث علىٰ تعظيم الحقوق، وعلمنا أن الإيثار إذا كان متعلقا بالله عز وجل هو أجلها وأشرفها وأفضلها، فترىٰ المؤثر يؤثر رضا الله عز وجل، يؤثر حبه عز وجل علىٰ رضا غيره وعلىٰ حب غيره، فيفعل ما يحب الله عز وجل إذا كانت النفس تكرهه، ويترك ما يكرهه الله عز وجل إذا كانت النفس تحبه وتهواه، والإيثار في الإسلام له شأن عظيم حض عليه الإسلام وامتدح أهله كما جاء في القرآن والسنة، علمنا أنواع الإيثار،

منها نوع إيثار محمود إيثار رضا الله عز وجل علىٰ رضا غيره هذا النوع من أنواع الإيثار المحمود إيثار الهدىٰ والدين علىٰ ما سواه، إيثار المنهج الحق علىٰ ما سواه من المناهج الباطلة إيثار السنة علىٰ البدعة إيثار الآخرة علىٰ الدنيا، إيثار الأخ أخاه علىٰ نفسه في فضول الدنيا، وعلمنا عن الإيثار المذموم الإيثار بالقربات والطاعات، هذا لا يجوز؛ لأنه جاء الأمر بالمسابقة والمنافسة في الخير وفي الطاعات، الإيثار بالوقت المصروف الطاعات فيشغل وقت الطاعات باللهو واللعب هذا إيثار مذموم ومحرم، إيثار الدنيا علىٰ الآخرة من الإيثار المذموم أيضا، وهكذا علمنا فضائل الإيثار، الإيثار خلق الفضل في الإسلام، الإيثار خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الإيثار يكسب العبد رفعة في الدنيا والآخرة، الإيثار هو النهاية في الأخوة الدينية، وعلمنا كيف يكتسب الإيثار، يكتسب

الإيثار بعدة وسائل: رغبة العبد في مكارم الأخلاق، مقت الشح، تعظيم الحقوق للمسلمين المواظبة علىٰ تكلف الإيثار مرة بعد مرة حتىٰ تألفه النفس وتعتاده ويسير طبعا وسجية، إدمان مطالعة فضائل الإيثار، المواظبة علىٰ العبادات والطاعات المفروضة، لزوم الصدق وتحريه، تجنب الكذب لأن الصدق يهدي إلىٰ البر والإيثار من جملة البر، استحضار المثل الأعلىٰ، النظر في سيرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفي سيرة الصحابة والصالحين، من أهم الوسائل التي تعين علىٰ اكتساب الإيثار.

نسأل الله عز وجل أن يعيننا علىٰ التخلق بهذا الخلق العظيم خلق الإيثار، وأن يثبتنا عليه وعلىٰ الدين وعلىٰ الإيمان والسنة، كما نسأل الله عز وجل أن يحفظ بلادنا دولة الإمارات وبلاد المسلمين من كل سوء وفتنة، نسأل الله عز وجل أن يوفق ولاة أمورنا لما يحبه

ويرضاه، وان يرزقهم البطانة الصالحة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمّد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

حقوق الطبع محفوظة

للمزيد من الكتيبات

يرجى مسح الكود أو اتباع الرابط التالي:

https://www.baynoona.net/ar/all/e-books